عوائق نهوض الدولة العربية في الإسلام: الجابري قارئا لابن خلدون

Obstacles to the rise of the Arab state in Islam:Al Jabri reader of Ibn Khaldun

د. حوري بديع الزمان[1]*

[1]جامعة الوادي (الجزائر) houri-b.zamane@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام:16-05-2021 تاريخ القبول: 16-09-2021 تاريخ النشر : 30-12-2021

ملخص تتناول هذه الدراسة قراءة الجابري للتراث الفكري لابن خلدون، مستنبطا منه نظرية تُفسّر أسباب الانهيار السريع للدولة العربية في الاسلام، حيث حصرها في عوامل سياسية و اقتصادية واجتماعية، لكنه يتوقف عند أهم ظاهرة وهي التناقض التام بين حياة البدو (الحكام) وبين حياة الحضر (المحكومين) ، فاعتبر العقل البدوي يتناقض مع العقل السياسي للدولة، لذلك يقترح تحديث محددات السياسة العربية بتحويل : القبيلة الى لا قبيلة أي الانتماء الى أحزاب وجمعيات المجتمع المدني، والغنيمة الى اقتصاد ضريبي منتج، والعقيدة الى مجرد رأي.

الكلمات المفتاحية: دولة؛ بدو؛ عصبية؛ ريع

Abstract: This study contains Al-Jabri's reading of Ibn Khaldun's intellectual heritage Extracting a theory that explains the reasons for the rapid fall of the Arab state in Islam , as he confined them to political economic and social factors ,But he stopped at the most important phenomenon : The complete contrast between Bedouin life and urban life The philosopher Al-jabri considered that the Bedouin reason contradicts the political reason of the state , so he suggests updating the determinants of Arab politics by transforming: the tribe into non-tribe . This means belonging to civil society parties and associations , the spoils into a productive levy economy and the belief into just an opinion.

Keywords: State; Bedouin; Tribalism; Rent

*المؤلف المراسل.

مقدمة

لقد تعددت وتنوعت الدراسات والابحاث حول التراث الفكري الذي تركه ابن خلدون، دراسات اختص بعضها في المجال السياسي و بعضها عالج الفكر الاجتماعي لدى ابن خلدون وأخرى في الفكر الاجتماعي...الخ، لكن المفكر المغربي المعاصر محمد عابد الجابري (1936-2010م) حاول النظر الى الانتاج الخلدوني نظرة كلية شاملة لاستخراج نظرية تفسّر تاريخ تطور الدولة العربية في الاسلام.

لقد حاول الجابري أن يقرأ تراث ابن خلدون من زاوية هموم وانشغالات عصرنا هذا، والتي تدور في مجملها حول موضوعات النهضة والتقدم، فكان السؤال المحوري يدور حول الأسباب الأساسية التي تحول دون قيام دولة عربية اسلامية ذات دعائم ثابتة وراسخة لا تزول بمجرد زوال الطبقة الحاكمة في الفترة التي عاشها ابن خلدون بين (1332م و 1406م).

من هنا يمكن صياغة الاشكالية التي تدور حولها الدراسة كالآتي: ما هي حقيقة النظرية الخلدونية التي تفسر التاريخ الاسلامي ؟ وما هي العوامل الفاعلة في التجربة الحضارية في الاسلام؟ وكيف قرأ الجابري الآليات التي جعلت حركة التاريخ في الدولة العربية حركة دائرية مغلقة وليست حركة مستقيمة ؟ وما هي الحلول التي يقترحها الجابري في سبيل كسر تلك الدائرة المغلقة وتحديث السياسة العربية ؟

1- العوامل الفاعلة في التجربة الحضارية في الإسلام

" لابد من استثمار شهادة ابن خلدون للأحداث التي عاشها والنظرات التي جمعها ، إذا ما أردنا أن نُكوّن لأنفسنا نظرية في تاريخنا وحضارتنا " تلك هي قناعة ناقد العقل العربي الجابري .

يرى الجابري أن السؤال المركزي الذي تدور حوله تأملات ابن خلدون الفكرية هو : لماذا انهارت الحضارة العربية الإسلامية بعد أن بلغت مداها من العظمة والمجد ؟

وللإجابة على هذا التساؤل حصر ابن خلدون العوامل المؤثرة في التجربة الحضارية الإسلامية في ثلاثة عوامل ، عامل إيديولوجي ، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي، وقد لخّصها الجابري كالتالي:

1.1- العامل الإيديولوجي:

والمقصود به الدين بمعناه الواسع، سواء كان نبوّة أو دعوة إصلاحية تتخذ من الدين غطاءً لها. لقد أثّر الدين الإسلامي في اندفاع العرب نحو الفتوحات الإسلامية تأثيرا كبيرا.

إن تفرّق القبائل العربية قبل البعثة المحمّدية بسبب نظامها القبلي القائم على الولاء للقبيلة لم يكن باستطاعتها التوحّد لولا الدين الإسلامي الذي خاطب العرب بلغتهم وأعجزهم ببيانه.

إن الدين كما يقول ابن خلدون " المذْهِب للغِلْظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس ". ابن خلدون (2000، 423)، هو الذي ألّف بين قلوب العرب لِيُشكّلوا أمة واحدة ممتدة من بلاد فارس والترك شرقا إلى بلاد المغرب والأندلس غربا، غير أن الدين وإن كان تأثيره قويا فهو غير حاسم لِلَجْم فاعل آخر في الحضارة العربية وهو عامل العصبية.

يقول ابن خلدون نقلا عن الجابري :"إن الدعوى الدينية من غير عصبية لا تتم ". الجابري (1994، 256) . إن قوة عصبية قريش كانت شرطا ضروريا في نجاح الدعوة الإسلامية إلى جانب أهمية الدين الإسلامي الذي جمع العصبيات العربية الأخرى على كلمة سواء.

أما الدعوات الدينية أو بالأحرى الحركات الإصلاحية التي قامت في التاريخ الإسلامي بدون رافد من عصبية قوية كان مآلها الفشل ، ومن هنا جاء لَوْم ابن خلدون لهذه الحركات والمحاولات " الانقلابية " ، وقد فسّر بعض الباحثين موقف ابن خلدون هذا على أنه تواطؤ منه مع صاحب السلطان ضد الرعيّة في حين أن صاحب المقدمة لم يمنع الثورة على الحاكم إلا في حالة التيقّن من القدرة على التغلّب على العصبة الحاكمة كَيْلا تنقلب المحاولة إلى شر ووبال على أهلها .

يعترض المفكّر العراقي علي الوردي على صاحب المقدمّة في مسألة حدود تأثير العصبية باستشهاده بالنبي محمد (ص) ، إذ كانت عصبيته ضعيفة ولم يفصله عن هلاكه إلا خيط العنكبوت وهو في الغار ومع ذلك فقد نجحت دعوته ، فالمسألة لم تكن عصبية فقط بل هناك عوامل أخرى تلعب دورها في نجاح الدعوة أو فشلها ، ومن جهة أخرى فإن كثير من الثورات الفاشلة تُشكّل بمعنى أو بآخر مقدمّة للثورة الناجحة التي تأتي بعدها. الوردي (216، 1994).

2.1- العامل الاجتماعي : العصبية

يأتي الجابري إلى شرح أثر العصبية في طبع الدولة العربية في مظاهرها السياسية والاجتماعية والعمرانية والثقافية .

وإذا كان مفهوم العصبية هو: " النُعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة" **فروخ (1983،698)**. فإن أثرها من الناحية السياسية حيث أنتجت العصبية العربية حكماً متذبذبا غير مستقر، لا يثبت حينا من الدهر إلا ليسقط من جديد، وهذا نتيجة منازعة الحكم من العصبيات المنافسة الأخرى التي تتحيّن الفرصة للانقضاض على السلطة، ومع أن الإسلام خصوصا في أول عهده استطاع أن يُحّيد كثيرا من العصبيات القبلية إلا أن ذلك كان مؤقتا وسرعان ما دبّ الخلاف والصراع بين تلك العصبيات على السلطة والجاه ونحوهما.

لقد كان الصراع بين العصبيات يتخذ وجهين: صراع خارجي تمثّل في صراع العصبيات العربية مع العصبيات الأعجمية (الفرس، الترك، البربر) ، وصراع داخلي كان بين العصبيات العربية ذاتها (بنو أمية، بنو هاشم ، بنو أسد)، وكان من نتائج ذلك الصراع الداخلي وقوع " الفتنة " حين انتقلت السلطة إلى معاوية دون علي نتيجة قوّة العصبية الأموية في الجاهلية وزادها اكتساب الجاه والنفوذ مع حكم معاوية في الشام. الجابري (1994، 258).

بَيْد أن انتصار عصبية بني أميّة لم يكن ليدوم طويلا وهذا نتيجة استغراقها في حياة النعيم والترف وهما مُضعّفان رئيسيان لقوة العصبية، فقد تغلّب الأعاجم على العرب وصار الحل والعقد بيدهم، فانقسمت الدولة ابتداءً من أوائل العصر العباسي إلى دول متناحرة تحكمها عصبيات متمايزة، فحكم الأمويّون الأندلس، والأدارسة دول البربر في شمال إفريقيا، أما في المشرق فكانت إمارات كثيرة تخضع للحكم العباسي من الناحية الشكلية فقط. الجابري (1994، 258).

إن وضع ابن خلدون يده على هذه الحقيقة، حقيقة أن التاريخ العربي الإسلامي برغم ما يُرسم عنه من صورة ورديّة مثل عدالة الخليفة عمر بن الخطاب المطلقة وتساميه عن الخلافات والحساسيات القبلية، ورضى الرعيّة الكامل وتسليمها لحاكمها، قلت إن ذلك كلّه لا ينبغي أن يحجب عنّا ذلك التاريخ الواقعي (المخفي والمُغفل) الذي لعبت العصبية فيه دورا حاسما، وكان دورا سلبيا جدا على الرغم من أن للعصبية في بعض الحالات فوائد إذا ما توجّهت لنصرة الحق والمظلوم، لكن الحقيقة والظلم نسبيان.

لقد لخّص الباحث المغربي سالم حميش الأطوار التي تمر بها االعصبية في منحاها السياسي كما قرره ابن خلدون في خمسة أطوار.

الطور الأول: طور الظفر بالحكم وتأسيس الدولة الجديدة من طرف القوة المنتصرة (القبيلة الأقوى عصبية)

الطور الثاني: وهو طور الاستبداد، وفيه يميل الأمير أو الحاكم الى الانفراد بالملك.

الطور الثالث: وهو طور الدّعة والفراغ، حيث يسعى صاحب السلطان الى تحصيل ثمرات الملك فتنشأ نوع من الحضارة.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة، ويكون صاحب الدولة في هذا مقلدا للماضين من سلفه.

الطور الخامس: طور الاسراف والتبذير ويكون فيه صاحب الدولة أو السلطان متلفا لما جمعه سلفه. حميش (94،1998).

3.1- العامل الاقتصادي

بعد حديثه عن دور العصبية الرهيب والسلبي في إبقاء الصراع على الحكم دائما ومستمرا، يأتي على تحليل الوضع الاقتصادي الذي لازم الدولة العربية، وفيه يقرر ابن خلدون حاجة الناس إلى التعاون من أجل تحصيل الغذاء ثم ربطه بين اختلاف العمران وطبيعة المناخ، فكثرة العمران نتيجة للمناخ المعتدل والأرض الخصبة، وقلته راجع إلى الأرض الجدباء. كما أن الشدة والغلظة التي تُميّز طباع الناس تعودان إلى المناخ القاسي وأن اللين والرهافة تعودان إلى البيئة الرطبة المعتدلة.

ترتبط العصبية بالبداوة حيث " شظف العيش وخشونة الطبع " فإذا ما وصلت العصبية إلى الملك واستحكمت قبضته فاستمتعت بمزاياه من الشبع والترف والدّعة كان ذلك إيذانا بنهاية حكمها، وهكذا تدور الدائرة من جديد. الجابري (1994، 259).

ورغم عدم وضوح دور العامل الاقتصادي في تشخيص ابن خلدون وتداخله مع العامل الطبيعي والجغرافي إلا أن الجابري لا يرى في ذلك ضعفا من صاحب المقدّمة، بل لأن الاقتصاد كان آنذاك بدائيا، لم يكن يسمح باكتشاف العلاقات الاقتصادية كما نراها اليوم، ثم إنه لا يوافق القائلين بأن ابن خلدون رائد المادية التاريخية التي قال بها كارل ماركس في الاقتصاد. الجابري (1994، 260). وهذه النتيجة نفسها التي خلص إليها أحد المتخصصين في التراث الخلدوني وهو المفكر مهدي عامل حين قال بأن غياب العامل الاقتصادي في نظرية ابن خلدون الاجتماعية لا ينفي عنها طابع المادة مع اقراره أن هناك اختلافا كبيرا بين ابن خلدون وماركس لاختلاف الشروط المادية الخاصة بكل منهما. عامل (122،1985).

4.1- تفاعل العوامل الثلاثة في التاريخ الإسلامي

لقد تميّز ابن خلدون عن غيره من المفكرين في كونه نظر إلى هذه العوامل الأنفة الذكر لا على أنها مستقلة ومنعزلة إنما كعوامل متفاعلة، فقد جمع بين العصبية والدين من خلال تأثيرهما المتبادل، كما ألّف بين العامل الاقتصادي والعامل الطبيعي، ثم ربط بينهما وبين تأثير الدين والعصبية في وحدة واحدة سمّاها " طبائع العمران ". الجابري (1994، 260).

ويمكن التمثيل بهذا المخطط لتوضيح تفاعل العوامل المختلفة وتحديدها لطبائع العمران.

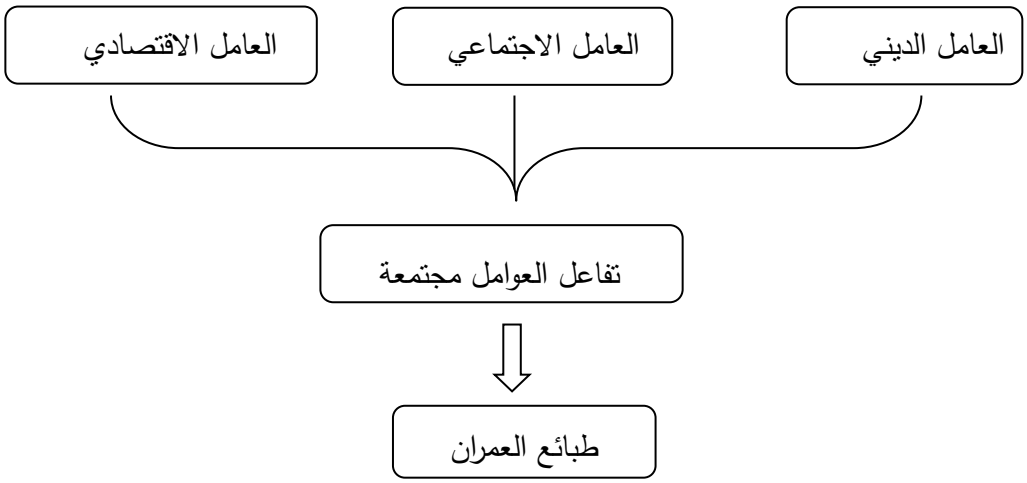

الشكل 01 يبن تفاعل العوامل المختلفة وتحديدها لطبائع العمران

ويبدو هناك خلاف كبير بين دارسي ابن خلدون حول تحديد علاقة الجانب الاقتصادي بباقي العوامل الاخرى، فالباحث فؤاد البعلي يقرر أن ابن خلدون أعطى للعامل الاقتصادي دورا هاما جدا في تقرير مسيرة التاريخ، لكن ليس العامل المهم الوحيد، فابن خلدون يرى أن للعوامل غير الاقتصادية كالعصبية والدين والأخلاق والسلطة وحالة العلم قدرا كبيرا من التأثير. البعلي (1981).

بينما اعتبر الأستاذ مهدي لحمامد في معرض مقارنته بين ابن خلدون وماركس أن الأخير يرى أن الدين والأخلاق وشكل السلطة...الخ هي نتائج وليست مسببات، " فعلاقات الانتاج (البناء التحتي) المرتكزة على العامل الوحيد للتغير (وهو العامل الاقتصادي) هي التي تلعب الدور الأوحد في البناء أو الانهيار". لحمامد (20،2017).

يضع الجابري نظريات ابن خلدون في المجتمع العربي الإسلامي في خلاصة جيدة يمكن تسميتها بالقراءة الجابرية الأصيلة يشرح فيها معوّقات وموانع نهوض الدولة العربية منذ فجر تاريخها إلى عصر ابن خلدون حيث يرجعها إلى تناقضات صارخة لازمت الدولة العربية في مهدها وجعلت حركة التاريخ فيها دائرية مغلقة. ذلك أن قيام إحدى العصبيات الكثيرة بالإجهاز على السلطة بسبب نقص موارد عيشها أو لتعرضها لاضطهاد السلطة الحاكمة أو لسبب آخر، ثم كان لها الحكم بواسطة الثورة أو الغزو المنظّم، فتؤسّس دولة جديدة على أنقاض الأولى المتهاوية، غير أن هذه العصبية الجديدة القوّية سرعان ما تدخل في طور الحضارة والترف ثم إلى أزمة اقتصادية خانقة تنتهي بها إلى السقوط والتلاشي وهكذا دواليك. الجابري (1994، 262).

يتساءل الجابري لِمَ كانت حركة التاريخ التي جسّدها ابن خلدون في الانتقال بين البداوة والحضارة عبر الدولة حركة دورية لا حركة مستقيمة؟ ثم ماهي الآليات التي تحكم هذه الدورة المغلقة؟

ولا يقف الجابري عند الاجابة السطحية التي تقول إن الترف هو مفسد العمران والحضارة كما ذهب الى ذلك جل الدارسين متوقفين عند نصوص ابن خلدون فقط ، الذي اعتبر المسألة "طبع عمراني" ، وهو رأي صحيح الى حد ما ، لكن الأصح أيضا أن نتساءل عن أصل المشكلة من أساسها، فالترف ليس عيبا في حد ذاته بل قد يكون نعمة، والنفس الانسانية بطبيعتها تسعى لتحقيق الترف والخير الاقصى، واليوم نشاهد الحضارة الأمريكية والحضارة الأوروبية تسعى نحو تحقيق الرفاه والازدهار ولم يكن الرفاه عاملا لسقوط الحضارات بل بالعكس تماما فهو عنصر محفز للنمو والتطور.

يصل الجابري في النهاية الى نتيجة حاسمة من خلال قراءته لما بين سطور مقدمة ابن خلدون وهي: إن الهوّة العميقة التي تفصل بين حال البداوة عن طور الحضارة، وأن التغيّر الاجتماعي والتطور التاريخي مرتبطان أشد الارتباط بعملية الانتقال من البداوة إلى الحضارة، فإن هذا الانتقال يتم عبر نوع من " الطفرة "، لا بنمو طبيعي تدريجي. الجابري (1994، 262).

إذًا فالتناقض بين حال البداوة وطور الحضارة فاعل أساسي في تحديد مسار تطوّر الدولة العربية، فما حقيقة هذا التناقض؟

2 ـ التناقض بين خشونة البداوة ورقّة الحضارة

وهما نمطان من الحياة متناقضان، فالأول البدو وهم سكان الأرياف والصحاري والبادية، وأما النمط الثاني فهم الفئة الحاكمة أي الطبقة الأرستقراطية بتعبير أخر، فما طبيعة كل نمط منهما؟

1.2 – خشونة البداوة

وتعني الاكتفاء بالمعاش الطبيعي وبالاعتماد على الفلاحة البسيطة وتربية الأنعام والمواشي والاقتصار على الضروري من المأكل والملبس والمسكن وباقي الحاجات، وهم أهل الحجاز وجنوب اليمن وسكان صحراء المغرب والبربر والسودان وأيضا عرب القفار والأكراد والتركمان والترك. الجابري (1994، 261).

وقد وصف المفكر عمر فروخ بعض خصائص أهل البادية بكونهم " أكثر شجاعة من أهل الحضر لتمرسهم بقتال الحيوانات المفترسة وبصد الغارات ولقيامهم بالغزو". فروخ (1983،698).

بينما تحدد المؤرخة الفرنسية فرانسواز أوبين Françoise Aubin (1932–2017) البداوة بثلاث عناصر:

أ–الوحدة البشرية: وهي القبيلة. ب–وجود قطيع: قد يكون تربية أغنام أو إبل ماعز. ج –الانتقال الدوري في رحلة ثابتة: حيث يتبعون خطوط المراعى والكلأ. عدي (1983،105).

2.2 – رقّة الحضارة

يمثّلها طبقة ارستقراطية حاكمة أو شبه حاكمة، تعيش حياة الترف والرفاهة والدّعة، يقوم على حوائجهم خدم ويحرسهم جنود، وبتعبير واحد هم طبقة البلاط الحاكم من ملوك وأمراء ورؤساء...إلخ

يسجّل الجابري أن الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة يتم فجأة وبسرعة، وهي المدة التي تستغرقها الجماعة بين استلام السلطة وتأسيس الدولة والملك، مما يجعل هذا الانتقال غير طبيعي، يأتي فجأة ثم يذهب فجأة أيضا. الجابري (1994، 262).

وأما كيف وصل أهل هذه الجماعة إلى هذه المكانة أي الحكم، فإضافة إلى قوة عصبيّتهم فقد ساعدهم في ذلك طبعهم المتوحّش (الغلظة والشّدة) ، مما جعلهم قادرين على التغلّب واستبعاد الطوائف الأخرى .

وأما طريقهم إلى " رقّة الحضارة " فهو تقليدهم أهل الدولة السابقة، ثم يقيمون حضارتهم على الجاه الذي اكتسبوه بقوّة السلاح ثم ينفقون على رجال مملكتهم وبطانتها.

يقف الجابري عند هذا الشكل من دورة المال الاقتصادية: يُجمع المال من الرعية ليُنفق على البطانة، فيراه بدائيا جدا لا يسمح بنمو المال ولا بتكاثره، بل يتناقص بسبب من جهة كثرة نفقات الترف والأُعطيات والهدايا ومن جهة ثانية محدودية الجباية، والنتيجة عجزٌ في الميزانية كما نقول بلغة الاقتصاد اليوم، مما يؤدي إلى الانهيار الاقتصادي المفضي إلى الانهيار السياسي.

يستخدم الجابري مفهومين ماركسيين لشرح الوضعية الاقتصادية الهشّة لهذه الدولة وهما: البناء الفوقي والبناء التحتي، فيقول: إن " التناقض بين حضارة استهلاكية ومؤسسات فوقية مصطنعة، وبين بنائها التحتي، الاقتصادي والاجتماعي، الذي أقامت نفسها عليه بشكل تعسفي، بناء لا يتحمّلها ولا يقدر على حملها، لأنها لم تكن نموا طبيعيا ولا تطورا تدريجيا له ". الجابري (1994، 263).

نستطيع اذن شرح غاية الجابري من خلال ربط انهيار الدولة بالهوّة بين حياة البداوة وبين حياة الحضارة وليس الترف الذي هو نتيجة وعَرَضٌ فقط بالقول: إن الأعرابي البدوي ليست لديه تقاليد في الحكم ولا تجربة سياسية تُمكّنه من تسيير شؤون الدولة الفتية لكنه حصل على السلطة بحكم القوة والأمر الواقع، بينما في الدول الغربية الحديثة من يقف على شؤون الدولة هي طبقة سياسية محنّكة باستطاعتها التغلب على مشاكل الاجتماع والسياسة والاقتصاد، فنشأت حالة من الاستمرارية والتراكمية ترسّخ قواعد الممارسة السياسية في حياة الدولة، وكل ذلك كان نتيجة لظروف تاريخية عرفتها التجربة السياسية الأوروبية حيث حلّت الرأسمالية مكان الاقطاعية. وهذا ما أشار إليه الباحث المهدي لحمامد حين كشف أن العامل الغائب الذي كان سيوقف الدوامة بين طبقة البدو الحاكمين وبين خصومهم هو طبقة " البرجوازية ". لحمامد (24،2017).

وحين يوضّح الجابري دور كل من الطبقة الحاكمة والطبقة التي تنازعها الحكم، يثور سؤال عن دور الطبقات الأخرى، فما دورها؟

3.2- دور الفئات الوسطى (طبقة الفلاحين والصناع والتجار)

لم يكن للطبقات الوسطى في الدولة العربية أي دور حاسم مقارنة بطبقتي الحكّام ومنافسيهم، فالفلاحون في الغالب مستضعفون وأهل عافية، ولم يكن يشتغل بالفلاحة إلا المعدمين لأن دفع الخراج للحاكم على المنتوج لا يترك أي فائض مالي للفلاح يتعفّف به، فكانت الفلاحة مهنة لِسدْ الرّمق لا أكثر.

وأما فئة الصنّاع من حرفيين ومهنيين فكان وضعهم أفضل قليلا من وضع الفلاحين، وذلك لاحتياج الطبقة الارستقراطية إلى خدماتهم، كصُنع لهم ما حَسُن من اللباس وطاب من المأكولات، إضافة إلى صنع الأواني

المنزلية ومواد الزينة ...إلخ ، لكن كثيرا مِن أصحاب النفوذ والجاه مَنْ لا يدفع لهؤلاء إلا قليلا فبقي دخلهم الاقتصادي محدودا .

وأما وضع التجّار فليس بأفضل حال، فالتجارة كانت تحتاج إلى جاه ونفوذ يرعيانها ويدافعان عن مكتسباتها، ولم يكن يستطيع ذلك إلا السلطان ومن تحته، فكان النصيب الأوفر من حظّه ولا يبقى للتجار الصغار إلا الفتات الذي لا يُغني من فاقة. الجابري (1994، 271).

لعلّ الخلاصة التي يخرج بها الجابري من هذا التحليل هو أن اقتصاد الدولة العربية في الإسلام اقتصاد مهزوز وعلى شفا من الانهيار، لا تشمله مفاهيم الاقتصاد المعروفة كالادخار وفائض الإنتاج والاستثمار...إلخ، وإنما هو مال الدولة يدور في الفراغ: الأخذ والعطاء، العطاء والأخذ، فإذا وقعت المجاعة أو ظهرت الفتن تضعضع كيان الاقتصاد وسقطت الدولة وذهبت حضارتها وفسد عمرانها. الجابري (1994، 273).

ولا يتم فهم هذه العملية إلا إذا فهمنا صورة الإنتاج والاستهلاك فما طبيعتهما وصورتهما؟

3 ـ اقتصاد الغزو وأسلوب الإنتاج الحربي

إن صورة الإنتاج في الدولة العربية لا يتوافق مع تحليل كارل ماركس للتاريخ الاقتصادي والمراحل الاقتصادية من مرحلة بدائية مشاعية ثم عبودية فإقطاعية ورأسمالية واشتراكية، فهو نوع من الاقتصاد يتميّز:

1-قيام هذا الاقتصاد على القوة البدنية التي تمكّن الإنسان من التغلّب والسيطرة وغزو الإمارات الضعيفة.

2- يسود هذا الاقتصاد علاقات الصراع والعصبية بين الأطراف المتواجهة بدلا من علاقات الإنتاج الطبيعية المعروفة.

3-ان المال المُتحصّل عليه من الجبايات والمغارم في حالة الحضارة، وقطع الطرق والإغارة في حالة البداوة، لم يكن لِينمو أو ليُستثمر لأن مصيره الاستهلاك توزيعا وعطاءً، فالأموال كانت تجمع لتُستهلك لا لتُستثمر، ومنه فقد كانت السلطة السياسية نتيجة لغلبة العصبية وليس للسيطرة على قوى الإنتاج. الجابري (1994، 264).

إن اقتصاد الغزو كان ضرورة بالنسبة لأهله البدو الرحّل، فوقوعهم في مناطق قاحلة وقاسية أجبرهم على إيجاد وسيلة لبقائهم أحياء، لكن ذاك انعكس على قيمهم الأخلاقية فأضحى الغزو مفخرة حفظتها أشعار العرب. والنتيجة حصول" حضارة استهلاك فوقية، أقيمت على اقتصاد رخو، على ثروة تُجمّع وتكوّن مثل الرمال، تجمعها الرياح بسهولة وتذروها العواصف بسهولة أكبر ". الجابري (1994، 266).

4 ـ مظاهر الدولة العربية الإسلامية

1.4-من الناحية السياسية

اتساع رقعة الدول التي يؤسسها البدو الرّحل وسرعة زوالها، أما سبب سعة الرقعة فلأن البدو لا يثبتون عند أرض أو إقليم واحد، فهم دائمي الترحال للظفر بأكبر قدر ممكن من خيرات المدن والدول، لكن ذاك كان سببا في تشتّتهم وعدم تحكّمهم في الدول التي يؤسّسونها إلى أن تنهار كليًا. الجابري (1994، 267).

صحيح أن الدولة العربية في أوجّ قوتها اتسعت شرقا وغربا لكن الجابري ومن ورائه ابن خلدون يعزوان ذلك إلى تأثير الوازع الديني، ولما ضعف وتلاشى انهارت معه الدولة.

2.4- من الناحية الاجتماعية

لم يستطع العرب الفاتحون الاندماج في المجتمعات الجديدة هذه، وذلك لانصرافهم إلى الرئاسة والملك، فلم يكتسبوا المهن والحرف ولم يمارسوا الصنائع والفنون، فبقوا بعيدين عن التطبّع بمظاهر الحضارة والمدينة، وفي مقابل ذلك اهتموا أكثر بأصول أنسابهم وسلالاتهم لاستجلاب العطايا من الحكام العرب الحاكمين الجدد. الجابري (1994، 267).

3.4-من الناحية العمرانية

وكان نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن كان عُمران القبائل العربية كلّه أو جلّه بدويّا مكوّنا من الخيام والقياطن في مقابل البناءات والأمصار والرساتيق التي هي لعجم الأندلس والشام ومصر والعراق، فضلا عن أن المدن العربية سرعان ما يلحقها الخراب لضعف بنيتها التحتية وسوء اختيار موقعها إذا ما تعرضت لسيول جارفة أو فيضان الوديان. الجابري (1994، 269).

4.4- من الناحية الثقافية

ترتّب أيضا عن تلك المقدّمات أن حَمَلة العلم أي العلماء كانوا محصورين على العجم من دون العرب في الغالب، وذلك لانصراف العرب للرئاسة وحراسة الملك وحمايته من الأعداء، بينما لم يكن هناك مانع للأعاجم من تعلّم العلوم والنبوغ فيها.

لقد كان دور العرب الحاكمين هو تشجيع العلماء وتوفير لهم الجو الملائم للترجمة والتأليف والإبداع بصفة عامة، غير أن هذا الوضع الجيّد لا يدوم طويلا، إذ سرعان ما تنهار الإمارة بسبب الوضع الاقتصادي الهش (كما أوضحنا آنفا) والنتيجة بقاء الثقافة ضعيفة عموما. الجابري (1994، 270).

5.4- من الناحية الدينية

يرى الجابري أن الدين الإسلامي أو على الأقل كما فُهم من طرف الفقهاء لا يسمح باستغلال المال بالشكل الذي نراه في دول أخرى كالإقراض بالفائدة باعتباره ربًا محرّمًا، إن غياب المتاجرة في المال قد منع قيام بنوك مالية كما كان سببا في انعدام اقتصاد سوق حر وحقيقي قائم على الملكية الفردية والحرية الاقتصادية.

أما التأثير الأخر للدين في المجال السياسي للدولة فهو اعتقاد المسلمين بضرورة أن يكون للنبي خليفة يحكم دولة الإسلام المترامية الأطراف، وليس باستطاعة إنسان مهما أوتي من قدرة أن يحكم هذه الدولة التي تعجّ بالعصبيات المتناحرة والشعوب والقبائل المتمايزة بوسائل اتصال بدائية !!! الجابري (1994، 274).

والخلاصة أن نظام الخلافة قد أعاق استقلال عدة مناطق بشؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية استقلالا كان يفرضه واقع الأمور، فعاق بذلك نموها الذاتي وتطورها التدريجي، وكانت النتيجة أن عاشت المملكة الإسلامية حروبا أهلية مستمرة وثورات دائمة. الجابري (1994، 275).

لكن بعد أن عرفنا معوّقات نهوض الدولة العربية يثور سؤال في الحال: ما هي الحلول والمخارج؟ وكيف يتم القضاء على عوامل تآكل الدولة من الداخل؟

تلك هي ـ في اعتقادنا ـ المهمة التي قادها الجابري من خلال كتابه اللاحق: العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته، فعلى الرغم من تباعد زمن الكتابين (بين أطروحته للدكتوراه وكتابه الأخير 1971-1990).

إلا أن الأفكار الأساسية مترابطة ومتداخلة بل يمكن القول أن الكتاب الأخير كان أكثر عمقا وتفصيلا لذات المسائل. فما هي الحلول التي قدمها الجابري؟

5 ـ تحديث محددات الدولة العربية الإسلامية

ينادي الجابري من خلال تلك المحاولة إلى ضرورة تخليص الدولة العربية من ثلاثة محدّدات وتجديدها بأخرى أكثر عقلانية وهي كالآتي:

1.5-تحويل القبيلة في مجتمعنا إلى لا قبيلة

إن كان الانتماء إلى القبيلة في المجتمع العربي سببا لبقاء العصبية القبلية فانه من الضروري إدخال تنظيمات وروابط سياسية اجتماعية حديثة ، كالأحزاب العصرية والنقابات العمالية المدنية والجمعيات المستقلة والمؤسسات الدستورية ....إلخ ، فيكون الفرد فيها مسؤولا أمام ضميره لا أمام قبيلته ، كما يجب الفصل بين الكيان السياسي للدولة وبين المجتمع المدني . الجابري (2000، 373).

2.5- تحويل الغنيمة إلى اقتصاد ضريبة

أي تحويل الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد إنتاجي، ذلك أن الاقتصاد العربي يطغى فيه الريع بكل مكوناته، وتقريبا كل قطر عربي يعاني من هذه الآفة في قليل أو كثير، إن من بين الأثار السلبية للاقتصاد الريعي في الدول العربية كما يراها أحد المختصين هو تعطيل روح المبادرة والرغبة في الاستثمار مثلما ساهم في إيجاد نمط من النمو يتّسم بالتذبذب وعدم الاستقرار نتج عنه بطالة مرتفعة. عاشي (2012). لابد ـ من وجهة نظر الجابري ـ للأقطار العربية من إيجاد سوق عربية مشتركة تفتح المجال لقيام وحدة اقتصادية تُرسي الأساس لتنمية واعدة.

مع أننا لا نرى ضرورة الربط بين التطور الاقتصادي وبين الاتحاد والوحدة، بدليل أن تركيا هذا البلد المتوسط استطاع بمفرده أن يحقق طفرة اقتصادية في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين (2000 – 2010) ، كما أن تسمية الاقتصاد باقتصاد ضريبة ليس محببا لأن الضريبة ارتبطت في الدولة العربية القديمة بالريع، وبدلا من ذلك يستحسن وصفه بالاقتصاد الإنتاجي الاستثماري .

3.5- تحويل العقيدة إلى مجرد رأي

وفي هذا يقول الجابري " بدلا من التفكير المذهبي الطائفي المتعصّب الذي يدّعي امتلاك الحقيقة، يجب فسح المجال لحرية التفكير، لحرية المغايرة والاختلاف وبالتالي التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدوغمائي، دينيا كان أو علمانيا، وبالتالي التعامل بعقل اجتهادي نقدي". الجابري (2000، 373).

يلاحظ الباحث المغربي كمال عبد اللطيف تلميذ الجابري الطابع الليبرالي لهذه المبادئ الثلاثة، ذلك أن العمل من أجل مجتمع مدني ومن أجل اقتصاد عصري، ثم من أجل حرية الرأي والعقيدة يوضح جانبا هاما في خلفية القراءة الناظمة لكتابه في نقد العقل السياسي " إنه يحدد بعض ملامح الأفق الفكري الذي ينتظم في اطاره مشروع نقد الجابري للعقل السياسي العربي في أبعاده التاريخية ومظاهره الفكرية". عبد اللطيف، كمال(2003، 89).

لكننا نرى أن الحل الذي يقترحه الجابري هو حل سحري يفتقد الى آليات التطبيق العملية، فهو يطلب من المجتمع العربي أن يكون حداثيا في السياسة والاعتقاد لكنه واقعيا (اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا) يعيش في تخلف،

وهو ما تفطن له الكثير من المفكرين الحداثيين العرب المعاصرين مثل محمد أركون وجورج طرابيشي وغيرهما، إذ رأى طرابيشي أنه من دون نهضة لاهوتية أي دينية شاملة لا أمل في نجاح أي نهضة عربية أخرى. حوري (2018، 440).

وأخيرا وبعد أن عرفنا تشخيص الجابري من خلال قراءته للفكر الخلدوني حول محنة الدولة العربية منذ تأسيسها حتى عصر ابن خلدون ، ثم اقتراحه خطوات يجب تبنّيها في سبيل قيام مجتمع ناهض ودولة لا تزول بزوال الرجال ، نسأل أنفسنا هل تحقق شيئا من مطالبه ؟!! يمكن القول ثمة فروقات اقتصادية كبيرة بين الدول العربية اليوم، فدول الخليج التي اعتمدت أول الأمر على الريع البترولي استطاع بعضها الفكاك جزئيا ونسبيا من حلقة الريع حين استثمرت مداخيلها في مشاريع تجارية عالمية تدر أرباحا وعمولاتا في المستقبل، وأما الدول الباقية (غير الخليجية) فمنها من لبث اقتصادها يعاني الضعف والجمود ومنها من بقيت أسيرة للمداخيل الريعية بكل أشكالها.

الخلاصة:

وختاما وبعد عرضنا السريع هذا عن قراءة الجابري لنظرات ابن خلدون نحو تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وإجابة على الإشكالية المحورية: ما هو الجديد الذي يُستخلص من قراءة الجابري هذه؟ فإننا نقول إذا كان هناك جديد فهو النظرة الكلية الشاملة لرؤى ابن خلدون ومحاولة جمع شتاتها لإيجاد نظرية تفسّر تاريخ وتطور الدولة العربية الإسلامية للإجابة على سؤال النهضة أو سؤال التقدّم والتأخر.

لقد رَامَ الجابري الكشف عن الآليات التي تُبقي الصراع على السلطة صفريا في الحالة العربية والمتمثل في التناقض والتباعد بين ثقافة الحكام الفعليين وهم أهل البدو المحدودة تجاربهم وبين ما تتطلبه الحياة الحضرية السياسية المعقدة من كفاءات ومهارات وبرامج... لابد من كسر تلك الحلقة المغلقة بتحديث الحياة البدوية والتحوّل الى المجتمع الحداثي من خلال تجاوز اطار القبيلة الى مفهوم المواطنة وخلق اقتصاد منتج مكان مفهوم الغنيمة القديم، والتحرر من سلطة العقائد والطوائف والايمان بالاختلاف والتنوع المذهبي.

الاحالات والمراجع:

- ابن خلدون، عبد الرحمان (2000)، *تاريخ ابن خلدون*، ج2، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- بديع الزمان، حوري (2018)، *نقد جورج طرابيشي لنقد العقل العربي عند محمد عابد الجابري*، أطروحة دكتوراه علوم في الفلسفة (غير منشورة)، جامعة الحاج لخضر باتنة: الجزائر.
- البعلي، فؤاد، ج .بريان برايس (1981)، *التفسير الاقتصادي والاجتماعي للتاريخ عند ابن خلدون وكارل ماركس* (باللغة الانجليزية) ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، جامعة الكويت ، السنة 1، (1). تاريخ الاسترجاع 2021.08.11 من:
- الجابري، محمد عابد (1994)، *العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي*، ط6، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجابري، محمد عابد (2000)، *العقل السياسي العربي* ، ط4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حميش، سالم (1998)، *الخلدونية في ضو فلسفة التاريخ*، ط1، بيروت: دار الطليعة.

- عاشي، الحسن (2012)، *الاقتصاد الريعي في البلدان العربية وراء البطالة العربية واضعاف جودة الوظائف*، مركز مالكوم كير ـ كارنيغي للشرق الأوسط. تاريخ الاسترجاع 2021.04.15. من: https://carnegie-mec.org/2012/03/06/ar-pub-47449
- عامل، مهدي (1985)، *في علمية الفكر الخلدوني*، بيروت: دار الفارابي.
- عبد اللطيف، كمال (2003)، *أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب*، ط1، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- عدي، هواري (1983)، *الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي1830-1960*، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة.
- فروخ، عمر (1983)، *تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون*، ط1، بيروت: دار العلم للملايين.
- المهدي لحمامد، (2017)، *النظرية الاجتماعية بين عبد الرحمان ابن خلدون وكارل ماركس*، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد1، ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي. تاريخ الاسترجاع 2021.08.11 من: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajh/homear.aspx
- الوردي، علي (1994)، *منطق ابن خلدون* ، ط2، لندن: دار كوفان.